(٢٠) أحمد بن حنبل[١]

ذكر الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه:

كان شيخَ أهل السُّنة والجماعة، وله في علمِ الحديث سعيٌ جميل، وله في الورع والتقوى والرياضة والمجاهدة شأنٌ عظيم.

وكان صاحبَ الفِراسة، مُستجابَ الدعوة، وأهلُ الفِرق الإسلامية كلُّهم يعظّمونه ويعزّزونه من غاية إنصافه وزهده.

وما يُنسبُ إلى مذهبِهِ من نسبةِ الجسمِ إلى الله تعالى، فهو بريءٌ منه.

نقل أنه رأى ابنَه يتكلَّمُ في معنى هذا الحديث: «خمّرتُ طينة آدم بيدي»[٢]، وفي تلك الحالة كانت يدُه مكشوفةً من الكمِّ، فمنعه عن ذلك، وقال: تتكلّمُ في معنى يدِ الله تعالى، وتشيرُ باليدِ في أثناء الكلام.

وأدركَ كثيرًا من المشايخ مثل: ذي النون المصري، وبشر الحافي، ومعروف الكرخي، والسَّري السقطي، وغيرهم رحمهم الله تعالى.

قال بشر الحافي: في أحمد بن حنبل ثلاثُ خصالٍ ليست فيَّ: يطلبُ الحلال له ولعياله، وأنا لا أطلبُ إلاّ لنفسي[٣].

---

(١) طبقات ابن سعد ٧/ ٣٥٤، التاريخ الكبير ٢/ ٥، التاريخ الصغير ٢/ ٣٤٥، الجرح والتعديل ١/ ٢٩٢، و٢/ ٦٨، حلية الأولياء ٩/ ١٦١، تاريخ بغداد ٤/ ٤١٢، طبقات الحنابلة ١/ ٤، تاريخ ابن عساكر ٧/ ٢١٨، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٣٢٥، صفة الصفوة ٢/ ٣٣٦، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١١٠، مختصر تاريخ دمشق ٣/ ٢٤٠، وفيات الأعيان ١/ ٦٣، تهذيب الكمال ١/ ٤٣٧، سير أعلام النبلاء ١١/ ١٧٧، الوافي بالوفيات ٦/ ٣٦٣، مرآة الجنان ٢/ ١٣٢، البداية والنهاية ١٠/ ٣٢٥، غاية النهاية ١/ ١١٢، تهذيب التهذيب ١/ ٢٢، طبقات الحفاظ ١٨٦، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٥٤، الكواكب الدرية ١/ ٥١٧.

(٢) حديث رواه الدارقطني في علله ٥/ ٣٣٨ عن ابن مسعود. دون قوله: «بيدي».

(٣) كذا الخبر في الأصلين، ولم يذكر الخصلتين المتبقيتين وفي الترجمة المطبوعة صفحة ٤٥٣: ليست لي، منها: طلب الحلال...

قيل: لمّا غلبتِ المعتزلةُ على أهل السنة في بغداد كلّفوه ليقول بخلق القرآن، وطلبوه إلى دار الخلافة، قال له شخصٌ في الطريق: أنا سرقتُ شيئًا لبعضِ الناس، وأخذوني بالسرقة، وضربوني ألفَ مقرعةٍ ما اعترفتُ مع أنّي كنتُ على الباطل حتّى نجوتُ بالصبر، وأنت لا شكَّ على الحقِّ، وخصومُك على الباطل، إن صبرْتَ ظفرْتَ البتَّةَ. فعرضوا عليه الحال، قال: القولُ بخلقِ القرآن ليس بهيِّنٍ، وأنا لا أقدر عليه. وما رجعَ حتى صلبوه بالأكتاف معلّقًا بالكلاليب، وضربوه ألف سوطٍ[١] حتى يقولَ بخلقِ القرآن، وما قال به[٢]، ولم يرجعْ عن مذهب أهل السنة القائلين بأنَّ القرآنَ قديمٌ غيرُ مخلوق

حكي أنه كان عاريًا، وعليه إزارٌ، فانحلّ عقدُه، ويداه كانتا مَشدودتين، وحين شرعَتْ عورتُهُ في الانكشاف، ظهرَتْ يدان، وشدّتا عليه إزارَه، ولمّا رأى الخلقُ هذه الكرامة، امتنعوا منه[٣]، وأنزلوه وقيل إنه عاش بعده. والله أعلم.

نقل أنّ بعضَ الناس جاء إليه، وهو في النزع، فقال له: ما تقولُ في حقِّ هذه الطائفةِ التي عملوا معك شرًّا؟ قال: إنّهم يحسبون أنّهم على الحقِّ، وأنا على الباطل، وما عاقبوني إلا ظنًّا منهم[٤] أنّي مُستحقٌّ له، وإنّي على الضَّربِ والتعذيب لا أُخاصمهم في القيامة.

نقل أنه كان في عهده شابٌّ، وله أمٌّ مريضةٌ مرضًا مزمنًا[٥]، فقالت لابنها:

---

(١) ضرب الإمام أحمد أمام الخليفة المعتصم أربعة، أو نيفًا وثلاثين سوطًا، وكانت من الشدَّة أن قال رجلٌ ممن يُبصر الضرب والعلاج، لمّا رأى ضربه: قد رأيت من ضُرب ألف سوط، ما رأيت ضربًا مثل هذا. سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٥٣، ٢٥٦.

(٢) في (أ): وما أقرَّ به، ولم يرجع.

(٣) هذه الحادثة أوردها الذهبي في سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٥٦ ووهَّاها، واتَّهم من جاء بها بالكذب، وأنها من الخرافات السمجة.

(٤) في (ب): وما عاقبوا فيّ إلا ظنًّا منهم.

(٥) في (ب): مريضة مرض الموت مزمنًا.

يا ولدي، ما أطيقُ هذه الحالة، اذهب إلى أحمدَ بن حنبل رضي الله عنه، والتمسْ منه دعاءَ في حقِّي ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١] جاء الابنُ إلى بيت أحمد بن حنبل، وقرعَ الباب، فإذا هو في بيتٍ مُظلمٍ، قال: من أنت؟ قال: مُحتاجٌ. قال: فما حاجتك؟ فذكر له الحال، فاغتمَّ أحمدُ بسبب خوف الاشتهار، ولكن قام واغتسلَ، واشتغلَ بالصلاة، وكان الشابُّ واقفًا بالباب، كانت هناك عجوزةٌ، قالت: امضِ يا شابُّ إلى شُغلك، إذ هو مشغولٌ في شغلك. رجعَ الشابُّ، ولمّا وصلَ إلى باب بيته جاءتْ أمُّه وفتحَتْ له الباب بلا كلفةٍ ولا مشقة.

نقل أنه رضي الله عنه كان يتوضَّأُ على جنب الشطِّ في بعض الأحيان، وكان شخصٌ آخر يتوضَّأُ فوقه من الشطِّ، فتحوَّلَ إلى تحته[١] أدبًا، فحين ماتَ ذلك الرجل، رئي في المنام، وقيل له: ما فعلَ الله بك؟ قال: بسبب أدبٍ راعيته مع الإمامِ أحمد بن حنبل رحمني الله تعالى وغفرَ لي.

نقل أنه قال: دخلتُ بادية الحجاز وحدي قاصدًا مكّة، وفي بعض الأيام ضيّعتْ الطريق، وأنا أمشي في تلك الحالة إذ التقيتُ بأعرابيٍّ قاعدًا في طرفٍ، سعيتُ إليه، وسألتُ: الطريق؟ فنظر إليّ، وإنّي ظننتُ أنّه جائعٌ، ومعي كسيرةٌ من الخبز، أردتُ أن أُطعمَه، فاضطربَ في الحال، وقال: يا أحمد، أنت متوجّهٌ إلى بيت الله الحرام، ولا ترضى برازقيّة الله تعالى، لا جرم تضلُّ في الطريق. قال أحمد: اشتعلتْ نارُ الغيرةِ في فؤادي، وصرتُ متفكّرًا في أن لله تعالى عبادًا في زوايا وأطراف، لا يَعرفُهم غيرُه، قال الرجل: يا أحمد، فيما ذا تفكّرُ، له عبادٌ لو أقسموا على الله تعالى أن يجعلَ الأرضَ والجبال كلَّها ذهبًا لجعل. قال أحمد: نظرتُ، فإذا الأرض والجبال كلُّها ذهبًا[٢]، فغشي عليَّ من الهيبة، وغلبني النوم، سمعتُ هاتفًا يقول: يا أحمد، لِمَ لا تحفظُ القلبَ، هو

---

(١) في (ب): إلى ما تحته.

(٢) في (ب): أن يجعل الأرض والجبال كلها ذهبًا. فغشي علي.

عبدٌ من عبادنا، لو أرادَ أن نضعَ السماءَ على الأرضِ، والأرضَ على السماء نفعلُ ولا نخالفُهُ، ونحن أريناه إيّاك، ولا تراه بعد ذلك. قال: انتبهت ولم أر الأعرابي

نقل أنه سكنَ بغداد، وما أكل من خبزِها أبدًا، وكان يقول: إنّ عمرَ رضي الله عنه وقفَ أرضَ العراق على الغزاة والمُجاهدين، وهي حقُّهم، وكان يَبعثُ إلى الموصل، ويُشترى هناك له الحنطةُ، ويُؤدّى إليه في بغداد، ويأكلُ منها مقدار قُوته.

ابنُه صالح تقلّدَ القضاء في أصفهان سنةً، وكان صائمَ النهار قائمَ الليل، وما كان ينامُ في الليل إلاّ ساعتين، ولم يكن لمحكمتِهِ بابٌ ولا بوّاب، وكان يسكن فيها ليلاً ونهارًا مخافةَ أن يجيءَ إليه متظلّمٌ أو شخصٌ لرفعِ حكمٍ، ويكون هو غائبًا، أو يكون الباب مُغلقًا أو مردودًا، أو يعرض لأحدٍ عارضةٌ ليلاً، فكان في جميع الأوقات حاضرًا هناك

نقل أنه جيءَ إلى بيته من بيتِ ابنه المذكور خميرةُ العجين مرَّةً، وعجنوا بها العجين وخبزوها، فوضعوا الخبزَ بين يديه، وقالوا: الخميرةُ من بيتِ ابنك. فنظر إليه طويلاً، ثم قال: هو كان قاضيًا في أصفهان سنةً، والخميرةُ من بيته، فهذا الخبز لا يليقُ بنا. قالوا: وما نعملُ بهذا الخبز؟ قال: حطُّوا عندكم، وإذا جاءَ فقيرٌ، قولوا: الدقيقُ من بيت أحمد، والخميرةُ من بيتِ ابنه صالح، فمن أرادَ أن يأخذَ فليأخذْ، ومن لا فلا. مضى أربعون يومًا، وما جاء فقيرٌ، فتغيّرَ الخبزُ، وذهبوا به إلى دجلة، ورموه بها، سأل أحمد عليه الرحمة: ماذا صنعتم بالخبز؟ قالوا: رميناه في دجلة. قيل: ما أكل من سمكِ دجلة بعده أبدًا.

نقل أنه كان بمكّة يسمعُ الأخبار عن سفيان بن عيينة رضي الله عنه، فتخلّفَ يومًا، وأرسل إليه سفيان رضي الله عنه شخصًا يتفحَّصُ عن حاله، فلمّا جاءَ إليه الشخصُ صادفه عاريًا، وثوبُه يغسلُه الغسّال. قال: لأجل هذا ما حضرتَ مجلسَ سماع الحديث؟ قال: نعم. وكان هذا الرجلُ المبعوثُ كثيرَ المال، قال لأحمد: أُعطيك من مالي كذا وكذا لتصرفَه في حوائجك؟ قال: لا أريد. قال:

أُعيرُك ثوبي لتلبسَ، وتحضر المجلس؟ لم يقبل. قال: فلا أرجعُ حتّى تُدبِّرَ تدبيرًا. قال الشيخ: أنسخُ كتابًا، اذهبْ واشتر بثمنه ثوبًا. قال: من الكتان؟ قال: بل اشترِ لي من ثوب البطانة عشرةَ أذرع لأجعلَ الخمسة إزارًا، والخمسةَ قميصًا، وهذا يكفيني.

نقل أن له تلميذًا من قديم الأيام طرده وهجرَ عنه؛ لأنّه رآه قد سيَّجَ حول بابه من الخارج، قال: أخذتَ من حقِّ الناس قدرَ ظفرٍ، لأنّك ضيّقت الطريقَ مقدارَ السياج، والطريقُ الشارع حقٌّ جميع الناس، فإذا ما عملت بهذه المسألة لا يَنبغي لك تحصيلُ العلم.

نقل أنه رحمه الله رهن سطلاً عند سوقيٍّ، مضى إليه اليوم، وأدّى الدَّين، وطلب السطلَ، جاء السوقيُّ بسطلين، وقال: خذْ منهما الذي لك. فما عرف سطلَهُ يقينًا، وترك سطلَه أيضًا للسوقيِّ وأعرضَ عنه.

نقل أنه يشتاقُ إلى عبد الله بن المبارك زمانًا، ويحبُّ أن يجتمعَ به، ويحترق في فراقه، فاتّفقَ أن جاءَ عبدُ الله بن المبارك زائرًا له، ودخل عليه ابنُه وقال: يا أبي، جاء عبد الله، قم إليه والتقِ به. فلم يقبلْ، وامتنعَ عن الاجتماع به، وقال ابنه: هذا عجيبٌ، أنت إلى اليوم كنتَ مُشتاقًا مُحترقًا في الشوق، فإذا جاءَ إليك مُتمنَّاكَ لِمَ لا تجيء إليه؟ قال أحمد رحمه الله: يا ولدي، كنتُ في هذا الاشتياق عمرًا طويلاً، وإنّي أخافُ إنِ التقيتُ به، وصرتُ ملتذًّا بصحبته أَستأنسُ به، يتعوَّدُ به ناظري، وحينئذٍ يشقُّ عليَّ مفارقتُه؛ فإنّي أُحبُّ أن يمضي عمري في اشتياقه، لعلَّ اللهَ يجمعنا وإيَّاه في مكانٍ لا يكونُ بعده فراق.

وله كلماتٌ عالية في المعاملات ـ أي معاملات العبدِ مع نفسه ومع غيرِه ومع الحقِّ والله أعلم ـ فإذا جاء إليه سائلٌ، وسأله عن المعاملة، كان يُجيبُ عن سؤاله، ويشرحُ له، وإن سأل في علم الحقيقة، كان يُحيلُهُ على بشر الحافي رضي الله عنه.

قال: سألتُ الله تعالى أن يفتحَ عليَّ بابًا من الخوف، ففتح حتَّى كادَ يزولُ

عقلي، ثم سألتُ الله تعالى وقلتُ: يا ربّ، بمَ يحصلُ التقرُّبُ إليك؟ قال: بالقرآن.

سئل عن الإخلاص، قال: أن تخلصَ من عملك. يعني لا يكونُ لك حظٌّ في عملك

سئل عن التوكّل، قال: الثقةُ بالله في الرزق.

وسئل عن الرضا، قال: أن تفوّضَ أمورَك إلى الله تعالى.

وسئل عن المحبّة، قال: اسألوها عن بشر الحافي رحمه الله، فإنّه ما دامَ باقيًا أنا لا أُجيبُ عن هذه المسألة

سئل عن الزهد، قال: هو ثلاثةُ أشياء: الأول: تركُ الحرام، وهو زهد العوام. والثاني: تركُ الفضولُ، وهو فضولُ العيش، وهو زهدُ الخواص. الثالث: تركُ كلِّ شيءٍ يَشغلُكَ عن الحقِّ، وهو زهد العارفين

قيل له: ما تقولُ في هذه الجماعةِ الصوفية التي اعتكفوا[1] في المسجد على التوكُّلِ بلا علمٍ؟ قال: غلطتم فيهم؛ فإنَّ العلمَ أجلسَهم فيه.

لما انتهى إلى حالةِ النزع، كان يُشير، ويحدّثُ، ولا يُفهم ما يقول، فابنُهُ قرّبَ أذنَهُ من فيه، واستمع، فإذا هو يقول: لا، بَعْدُ. قال: يا أبت، ما هذا الكلام في هذه الحالة الخطيرة؟ قال: جماعةٌ قعودٌ عندي، كما قال الله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، وإبليس حذائي، ويحثو على رأسه تراب المذلّة، ويقول: يا أحمد، نجوتَ منّي. وأنا أقول في جوابه: لا، بعدُ، يعني ما دامَ منّي رَمَقٌ أنا على الحذرِ من فتنتك، وإيماني على الخطر.

ولمّا توفّي إلى رحمة الله تعالى ورُفعت جنازتُه، جاءتِ الطيرُ أفواجًا، ومسَّتْ بأجنحتها وأجسادها نعشَه، حتى أسلمَ ذلك اليوم، وآمنَ بالله أربعةُ آلاف من اليهود، ويصيحون: لا إله إلا الله محمد رسول الله[2].

---

(١) في (أ): الذين اعتكفوا.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٤٣: هذه حكاية منكرة... ثم العادة والعقل تحيل=

قيل: كان من دعائه: اللهم، من رزقته شرفَ الإيمان لا تسلبْه عنه، ومَنْ لم ترزقْهُ الإيمانَ فارزقه وارفقْ بهم حال النزع.

وقال محمد بن خزيمة[1]: رأيتُ الإمامَ أحمد بن حنبل رحمه الله بعد وفاته في المنام، كأنَّه يتمشّىٰ متبخترًا، قلت: وما هذا التمشّي؟ قال: هذه مشية المقرّبين إلى دار السلام، قلت: وما فعل الله معك؟ قال: غفرَ لي، وتوّجني بتاجِ الكرامة، وأنعلني بنعلِ العزِّ، وقال: يا أحمد، هذا جزاءُ من قال: القرآنُ قديم، ليس بمحدثٍ.

اللهم إنّا نسألُكَ ونتضرَّعُ إليك أن تُصلحَ لنا فسادَنا، وتصحِّح بكرمك فيك وفي صفاتك اعتقادَنا، وتجعلنا من الفائزين بمرضاتك يا كريم يا أرحم الراحمين.

* * *

= وقوع مثل هذا، وهو إسلام ألوف من الناس لموت وليٍّ لله، ولا ينقل ذلك إلاّ مجهول لا يُعرف، فلو وقع ذلك لاشتهر ولتواتر، بل لو أسلم لموته مئة نفس لقُضي من ذلك العجب.

(١) في (أ): محمد بن جزعة، وفي (ب): محمد بن خزاعة، والمثبت من سير أعلام النبلاء ٣٤٨/١١.